المحاضرة السادسة والسابعة لطلاب السنة الثالثة – مادة الفلسفة الحديثة – قسم الفلسفة

الدكتورة سوسان الياس

سورين كيركجارد (1813-1855)

تمهيد:

هو فيلسوف دانماركي، يقول البعض عنه، نتيجة اهتماماته اللاهوتية – أنه غير فيلسوف، ولكن كتاباته والموضوعات التي تطرق إليها وخاصة تناوله لمفاهيم القلق، الوجود، الحرية والحقيقة، جعلت منه رائداً من رواد الفلسفة الوجودية، كما أن عنايته بالجوانب الروحية والإيمانية في شخص الإنسان، لم تكن لتجعل منه مصلحاً دينياً، رغم ما هاله مما وصلت له الكنيسة في عصره ورغبته في إصلاحها والعودة بالدين إلى نقاءه الأول.

كانت تأملاته الفلسفية نتاج تجارب ذاتية حقيقية بدل من أن تكون مذهباً فلسفياً أو نسقاً فكرياً متكاملاً قوامه مجموعة أفكار مجردة. فهو يبتعد عن مثالية هيغل ويحارب نظرته الفلسفية المغرقة في تجريدها. وأصالته برزت بأنه استخرج المعاني الفلسفية عبر مواقف بشرية معاشة حيال العالم، الله، المجتمع والتدين فالفيلسوف بنظره "ما هو إلا موجود إنساني يوضح موقفاً إنسانياً". لذلك رأى أن من واجبه ليس بناء فلسفة معرفة جديدة، أو بناء نظام ميتافيزيقي حديث، لكن خلق إنسان جديد من البشر، قادر على امتلاك حريته ورسم خريطة مستقبله بنفسه والمسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله، وهذا الإنسان الجديد يسميه "فارس الإيمان" الذي يجد الوحدة مع الله، حيث الإيمان به يقوي روح الإنسان ولا يضعفه أو يغرر به.

أما مؤلفاته فأهمها "شذرات فلسفية"، "مفهوم القلق"، "المرضى حتى الموت" ويومياته "إما...أو".

الذاتية ومشكلة الوجودية:

تبدأ فلسفة كيركجارد من الموجود وليس من الوجود، من وجود الفرد المتعيّن في امتلائه الانطولوجي. وإذا كان لابد للوجود من أن يكون موضوعاً للتفكير فينبغي على المفكر أو الفيلسوف أن يعود إلى التجارب الفردة. تجاربي وتجاربك. لا تجارب البشرية ككل. يستمد منها حقيقة الوجود، فالفكر الحقيقي هو الفكر الوجودي المعاش تتحد فيه المعرفة بالوجود، والنظر بالعمل.

هذه الانطلاقة لفلسفة الوجود عند كيركجارد ذات الطابع الذاتي تدخل على طرفي نقيض مع الفلسفة العقلية التي تزعمها هيغل الذي أكد عبر منطقه الصارم على ما يعرف بوحدة الداخل والخارج، حيث تتحد الذات مع

الموضوع وتصبح متعقلة ضمن الصيرورة الكلية للروح للوصول إلى الوحدة المطلقة أو ما يعرف عند هيغل "بالكلي العياني"، حيث يمكن تعقل الذات وتصورها ضمن حدود العقل وحده. في حين أن فلسفة كيركجارد تؤكد على الذات وتفردها، حيث يصعب التفاهم مع الآخر، كما أنها تعطي الأولوية للوجود الذاتي بالنسبة لتصورات العقل، فالعقل لا يمكنه تصور الوجود وتأمله، أي لا يمكن حصر تجربة الذات ضمن إطار منطقي صارم، حيث الاختلاف مطلق وكلي بين الوجود والعقل. والنزعة العقلية – بنظر كيركجارد – تجهل هذا الاختلاف بين الفكر والوجود أو تنفيه أو تدّعي تخطيه، من خلال الوحدة التي تصير إليها الذات مع نقيضها (الموضوع)، في حين أن الوجودية تبرز مثل هذا التناقض القائم بين الذات والموضوع. بين الأنا والعالم، تناقض لا مجال لتخطيه أو إزالته.

وفي إطار ردة الفعل القوية اتجاه هذه العقلانية واختزالها الوجود والحياة إلى مجرد تصورات عامة مجردة، قام كيركجارد بتوجيه اللوم ل هيغل، بأنه قام بتجريد الفكر والثقافة من الشعور الإنساني، متهماً إياه، وذلك من خلال مقولة هيغل "كل ما هو موجود معقول، وكل ما هو معقول موجود"، مساواته للوجود بالفكر، في حين أن كيركجارد يقول بأن الأفكار لا تساوي الوجود، فمن المستحيل أن نعي الوجود كفكر، لكي "نفكر" شيء ولكي "نوجد" شيء آخر، لذلك يعتبر وجودي ورغبتي وأفعالي و الوجود ليس أفكاراً.

ولكن وبالرغم من هذا التعارض الواضح بين فلسفة العقل وفلسفة الوجود، هناك شيء مشترك بينهما ألا وهو الإنسان أو بكلام أدق "الوعي الإنساني" الذي يدرك به الإنسان تمايزه ويفكر في حقيقة وجوده ويحاول معرفة نفسه، هذه المعرفة التي كانت شعار سقراط "اعرف نفسك". والتي سيعيد طرحها هيغل من منظور خاص حيث يؤكد بأن الوعي البشري يبدأ متحداً مع الطبيعة (وهو يأتي بمثال مستوحى من اللاهوت لدعم فكرته حيث يخبرنا بأن آدم وحواء كانا عريانين ولم يخجلا من عريّهما، لأن الوعي الذاتي مفقود لديهما)، والتاريخ الإنساني ما هو إلا محاولة لتحرر الوعي من الاندماج مع الطبيعة (المادة) لكي يعي نفسه.

والوجودية تطرح بشيء من القرابة مشكلتها حيث ترى بأن الإنسان لا يولد إنساناً وإنما يصير إنساناً، وبمصطلحاتها الخاصة: لا يكون وجود الإنسان مطابقاً لماهيته منذ ولادته، بل يوجد أولاً ثم تتشكل ماهيته، وهذه الماهية هدف أو مشروع حياتي وجودي يسعى الإنسان لتحقيقه، وقد يحققه فيعي ذاته ويصير إنساناً، وقد يبقى في مرحلة الحيوانية (خضوع الإنسان لملذاته) طيلة حياته فله مطلق الحرية، فالمسألة فردية بحتة، أي ليس ثمة ضرورة ليتحول الوعي الحيواني (غير الواعي بذاته) إلى وعي الذات.

وفلسفة كيركجارد الوجودية تكاد تكون بحق فلسفة للذات الواعية بذاتها، أو كما يحلو له تسميتها فلسفة الذات البشرية الأصيلة الحقيقية، متبعاً بذلك منهجاً ذاتياً وصفياً مطابقاً للحياة. لأنه إذا كان الوجود موضوعاً غير فلسفي – نظري فلابد من ترك التصورات العقلية والفلسفية التي تسلبه واقعيته، والعودة إلى الذات. وهذا ما فعله كيركجارد حيث اتخذ من ذاته موضوعاً لوصف فينومنولوجي (أي النظر إلى الإنسان على ما يوجد عليه لا تحليل لماهيته المجردة، وإنما إدراك لشعوره مباشرة) باحثاً عن حقيقة ذاتية، لأن اليقين الموضوعي متعذر للذات.

والحقيقة أن كيركجارد لم يستعمل كلمة فينومنولوجيا وإنما هوسرل، وهناك تشابه بينهما من حيث المنهج المتبع، فكلاهما يبحث عن الحقيقة ليس في الجدل والاستدلال الفلسفي، بل من خلال وصفها ومعانيها الذاتية. وهذا يستعمله كيركجارد عن حديثه عن القلق واليأس و التهكم، فقد ثار على المنهج الفلسفي – النظري ومارس منهج الوصف لسريرته مستخدماً لغة أدبية، مبتعداً عن التفكير المجرد. ولنحاول أن نستعرض وإياكم الخطوات الرئيسة التي انطلق منها كيركجارد في تجربته الفلسفية – الذاتية.

مفهوم التهكم عند كيركجارد:

إن الوقوف على مفهوم التهكم يمليه – من ناحية – طبيعة كيركجارد التهكمية الساخرة فقد كان "صعب المراس، ساخر المزاج، حاد الذكاء، لاذع التهكم" وطبيعته التهكمية هذه كانت ملاذه في صراعه مع الآخرين الذين "يفوقونه ذكاءً"، كما يمليه – من ناحية أخرى – ارتباط التهكم بارتداد الذات إلى نفسها والتعمق الباطني الذي يقوم به الفرد ليفهم نفسه، فهو "تعيين للذاتية وتحديد لها"، وعن طريقه تشعر الذات ولأول مرة أنها "حرة ولكن على نحو سلبي". وكيركجارد يجعل من التهكم المبدأ الحقيقي الذي يجب أن تنطلق منه الفلسفة، فالإنسان ينبغي عليه أن يعرف نفسه قبل أن يعرف أي شيء آخر، وهي نفس البداية التي انطلق منها سقراط عبر شعاره "اعرف نفسك". والذي اعتبره كيركجارد رائد الوجودية بحق. وسقراط الذي يعجب به كيركجارد وينظر إليه أنه افتتح عصراً جديداً ارتد فيه وعي الإنسان إلى نفسه لأول مرة، غير سقراط الذي يعرضه مذهب أفلاطون، بل سقراط الذي عبر بحياته الخاصة عن ذلك الارتباط الوثيق الذي أراده كيركجارد بين الفلسفة والحياة، سقراط الذي استخف بالنظريات ورفض المذاهب والحقائق السائدة، وذهب إلى أنه بغير مذهب ولا نظرية يعلمها لأحد، بل ليست لديه أي ضرب من ضروب المعرفة الخاصة به. وإذا كان سقراط قد وصف نفسه "بالذبابة اللاذعة التي لا تملّ م وخز الناس فتباغتهم، وتزعجهم وتوقظهم من سباتهم العميق" فإن كيركجارد يشبه نفسه بالشوكة فيقول "إني لا آمل، بفضل العذاب الذي أتحمله بصبر، أن أكون شوكة في جنب العالم". ومن هنا كانت البداية عند كلا الفيلسوفين التهكم، فكما أن الفلسفة تبدأ من الشك، كذلك الحياة الجديرة بأن يحياها الإنسان تبدأ من التهكم، فهو الخطوة الأولى الذي يبدأ فيها منهج كيركجارد الوصفي الداخلي لسريرته.

وكما هو معروف ليس التهكم بجديد على الفكر الفلسفي، فقد مارسه سقراط من قبل. فقد كان يدعي "بأنه لا يعرف شيئاً سوى أنه لا يعرف". وكذلك كيركجارد ابتعد عن المعرفة الواضحة المشتركة بين العامة، وقال سقراط "اعرف نفسك" وفي هذا وجد كيركجارد شعار الوجودية.

وتبعاً لرؤية كيركجارد لمعنى التهكم عند سقراط، فإن هذا الأخير مارس التهكم ليعين الآخرين على اكتشاف ذواتهم، مدّعياً الجهل التام، حتى يكتشفوا بأنفسهم الإمكانات والحقائق الكامنة فيها، فسقراط كان يوّلد العقول في حين أن والدته كانت توّلد الأجسام، وهو يدفع محاوريه إلى ذواتهم ليكتشفوا المطلق (الحقيقة المطلقة)، الذي يفلت من التعبير المنطقي. فالعلاقة التي يريدها الفيلسوف بين الأنا والآخر هو الاتصال التهكمي حيث لا يتكلم عما وجده (لأن العبارات المنطقية تلاشيه)، بل يعين الآخر على البحث في أعماقه. وهذا ما فعله

سقراط وبعده كيركجارد. حيث كلاهما وجد الحقيقة في الذات. وإن اختلفت التسميات عند كل منهما، فهي عند سقراط (المطلق أو الحقيقة المطلقة) أما عند كيركجارد فهو "اللامتناهي أو الكمال المطلق" الذي هو ليس بفكرة عامة مجردة أو فكر مجرد – على غرار هيغل – وإنما حضور (كشف) لا يمكن التعبير عنه أو تعقله، وإنما يتجلى عندما يفيض قلب الإنسان وجداً وولعاً اتجاه اللامتناهي وهو الله.

إن الاتصال التهكمي كونه يتمركز حول الإنسان فهو يتصف، كما يراه كيركجارد بأنه:

- اتصال غير موضوعي: ينأى عن مجال العام، لأن ما هو عام حيادي مشترك بين البشر، لا يثير مشاعر الآخرين ويبعثهم نحو ذاتهم.
- وهو اتصال غير مباشر لأنه يجهل الذات وحقيقتها، وذلك لإبهامها وسرّها وحياتها الخاصة (خاصة إذا عرفنا أن الحياة صراع دائم للانتصار على أنفسنا والحالة التي نحن عليها، وتجاوزها والاتحاد معها. أي أننا نصبح أنفسنا عبر تجاوزنا لذاتنا، وهذه تجربة خاصة).
- كما أن التهكم عنده، وإن كان هدفه كهدف التهكم عند سقراط وهو (توليد الحقائق)، إلا أن كيركجارد لم يسائل أحد لينقض آراءهم، بل مارس التهكم بأساليب مختلفة عبر انطوائه على ذاته، فهو لم يتكلم عن ذاته وإنما استخدم أسلوب الاستعارة، فكتب بأسماء مستعارة مستلهماً شخصيات تاريخية متناقضة استخدمها كرمز عبّر من خلالها عن إمكانات الذات المتناقضة لديه: كالشك والإيمان، القلق واليأس والأمل، الحرية والضرورة.....

والتهكم بنظر كيركجارد، يمثل البداية الحقة لبناء الوجود الإنساني الأصيل، لأن التهكم يأخذ على عاتقه تحرير الإنسان من سيطرة الآراء السائدة والأحكام المسبقة، كما وينتشل الذات من "ضياعها" والتمرد على الواقع وتدمير ما آلت إليه حياة الإنسان. وهدم ألوان "اليقين الموضوعي" الفلسفية والاجتماعية والدينية، سوف يؤدي إلى ارتداد الوعي إلى ذاته، واستيقاظ الشعور وتنبّه إلى ما يعيش فيه الإنسان من زيف، لأنه في الواقع المعاش تخلى الإنسان عن ذاته وتخلى عن الله داخل ذاته. بحسب كيركجارد، الذي اهتم بخلاص الكائن الموجود.

فالتهكم يسير بنا إلى عتبة الوجود الأخلاقي "الدور الإيجابي للتهكم هو أن يعيد الفرد من جديد إلى نفسه، وأن يخلق فيه اهتماماً بوجوده الأخلاقي، فلا يمكن أن تكون حياة بشرية أصيلة بدون تهكم". حيث يضعنا وجهاً لوجه أمام ذواتنا ويدفعنا لاكتشاف الحقائق الكامنة بداخلنا، والتي هي موضوع شخصي – فردي.

ذاتية الحقيقة:

شغل البحث عن الحقيقة، حياة كيركجارد الفكرية، محاولاً العثور على الفكرة التي من أجلها يحيا ويموت، هذه الحقيقة التي لم يكن ليتصورها خارجة عن الإنسان، بل أرادها عين الحياة التي يعيشها والتي تعبر عنها، إنها "الحياة في حالة الفعل". ما يعني أن الحقيقة، باعتقاد كيركجارد ذاتوية في الأساس، فهي موضوع شخصي ونموذج متفرد من العمل المحايث للمشاعر التعاطفية، فالحقيقة تلازم الذات وتطرح بقالب وجودي

– ذاتي وبمنأى عما هو براني. وإذا ابتغى الفرد منا اكتناه الحقيقة بصورة برانية وعرض مباشر، يكون قد سعى لأفول وجوده "إنها حقيقتي أنا، أو أنت". ولا ينظر إلى الحقيقة على أنها تصور عقلي صرف أو تجريد عقلاني، بل هي تجربة معاشة تتعين بعقل وجودي وليس بعقل مجرد، وعندما يتساءل المرء عن الحقيقة، عليه وضع سؤاله بصورة شخصية حميمية. فالحقيقة تكتسب معناها عندما تتحول من مجالها الموضوعي العام إلى الذاتي، أي عندما نتبناها ونعتنقها.

ولكي يوضح كيركجارد ماهية الحقيقة التي ينشدها، قام بالتفرقة بين الفكر الموضوعي والفكر الشخصي، الفكر الموضوعي يخص حقائق موضوعية علمية ورياضية وتاريخية، وجودها مستقل عن وجود الشخص. وهو لا يهتم كثيراً بتلك الحقائق، والفكر الشخصي يشمل القيم والأخلاق والعقائد الدينية وتعتمد على الشخص ودرجة تقييمه لها. فهي ترتبط بالإنسان وتتصل بالحياة، وهي أفكار ضرورية لإحساسنا بوجودنا.

ولعل ما يحدد كل معرفة أو حقيقة أنها تقوم – بنظر كيركجارد، على كيفية العلاقة التي تربط الذات بالموضوع، وما قامت به الفلسفات السابقة أنها وقفت على العلاقة التي تربط الذات بالموضوع، فاكتفت بأن الحقيقة تقتصر على ظاهر الأشياء كما عند كانط، أو أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، كما حددها السفوسطائيون، في حين أن الحقيقة تتكشف بالوقوف على كيفية ارتباط الذات بموضوعها، وهذه الكيفية تقوم بالأساس على عملية الوجد أو الولع الذي تندفع به الذات نحو موضوعها، وشدة هذا الوجد والولع وإنما هو مقياس الحقيقة وبالتالي مقياس الوجود.

وإذا كان تاريخ الفكر يشهد على أن الحقيقة تقوم في اتساق الفكر مع ذاته أو مع الواقع عبر قوانين المنطق أو جدل العقل، فإن كيركجارد يؤكد بأن الحقيقة لا تكمن في جملة العلاقات المنطقية المجردة عن الوجود، بل في هذا الشعور القوي بالعودة إلى الوجود الإنساني – الذاتي، المميز عن كل ما هو عام ومجرد. لذلك، فبنظره اكتشف الإنسان الحقيقة عندما قويت الرغبة والشعور لديه باكتشافها، ويأتي بمثال مستوحى من تاريخ الفلسفة حول معرفة الإله، فيرى بأن من حاول التوصل لمعرفة وجود الله عن طريق الاستدلال والبرهان العقلي لم يكتشف حقيقة وجوده والعلم به، وإنما ذلك الذي عاش تجربة وجود الله وشغف به. وقويت علاقته بالله عن طريق الإيمان به توصل إلى حقيقته. من هنا كانت كل المعارف الموضوعية اليقينية به معارف قابلة للشك والنقض، لأن الله ذاتاً وليس موضوعاً لأي معرفة.

والأمر الذي يخلص إليه: أن كل الحقائق الموضوعية نسبية، في حين أن حقيقة أي موضوع في شدة ارتباط الذات بهذا الموضوع، من هنا كان السؤال عن: ما هو موضوع الحقيقة؟ يقود إلى حقيقة موضوعية، اليقين فيها نسبي – تقريبي، يخالجها الشك دائماً، أما السؤال عن كيف نتصل بالحقيقة وبالوجود، أي السؤال عن كيفية ارتباط الذات بموضوعها وشدة الوجود والولع (أي صبغ الحقيقة بطابع الذاتية)، هو ما يريده كيركجارد ومثاله أن شدة الحب اللامتناهي في مسألة الله والتعلق به، هو الذي يقودني إلى حقيقة هذا الإله.

إلا أنه، وبالرغم من اهتمام كيركجارد بالطابع الذاتي للحقيقة وربطها بشدة الوجد باعتناقها، فإن تلك الحقائق الموضوعية والتي تثير الشك لدى الذات لابد منها، لأنه بفضل هذا الشك تتقد المشاعر الإنسانية نحو موضوعها، نحو الحقيقة التي هي بحد ذاتها ظاهرة داخلية وليست ظاهرة خارجية أو برانية – كما أشرنا -،

فالشك يحول ما هو موضوعي محايد إلى يقين ذاتي. وكلما حاولت أن تحد الحقيقة بحدود منطقية، فكلما تجاوزتك وأصبحت مفارقة لك، وكيركجارد مولع بالمفارقات. إن الحقيقة يقول كيركجارد هي "هذا الفعل الجريء الذي يختار اللايقين الموضوعي، بولعٍ لا متناهٍ" هنا تبرز الصلة واضحة بين الحقيقة والإيمان، فما تؤمن به الذات وتندفع نحوه بولعٍ ووجدٍ شديد، يعجز البحث العلمي – الموضوعي عن البرهان عليه وإثباته. بهذا المعنى يفسر كيركجارد مقولة سقراط (إني لا أعرف إلا شيئاً واحداً وهو أني لا أعرف)، أي جهل سقراط بإمكانية الوصول إلى حقيقة موضوعية يقينية، والبحث عن الحقيقة في أعماق الذات فقط، بعيداً عن أي سلطة "فالإنسان يجب أن يبحث عن الحق بعيداً عن أية سلطة خارجية أياً كانت المخاطر، بعيداً عن ممارسة الأتباع والمؤيدين".